رسالة

العبادات الشرعية

والفرق بينها وبين

البدعة

تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

« ٦٦١ - ٧٢٨ هـ »

علق عليها
محمد رشيد رضا

خرج أحاديثها
بدر بن عبد الله البدر


بسم الله الرحمن الرحيم


رسالة
العبادات الشرعية

الطبعة الأولى



(١) طبعت عن طبعة « مجموعة الرسائل والمسائل » بتعليق محمد رشيد رضا .

الناشر
مكتبة ابن الجوزي
الاحساء ـ الدمام
هاتف : ٥٨٢٤٦٧٢ ـ ص. ب. ١٦٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام ، بقية السلف الكرام ، العالم الرباني ، المقذوف في قلبه النور القرآني ، أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني ، قدَّس الله روحه ، ونَوَّرَ ضريحه ، وأسكنه فسيح الجنان :

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. مَنْ يهده اللهِ فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله وكفىٰ بالله شهيداً ، فبلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد في اللهحق جهاده ، وعبدالله مخلصاً حتىٰ أتاه اليقين من ربه ، ﷺ تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين .

فصل

في العبادات ، والفرق بين شرعيها وبدعيها . فإن هذا بابٌ كَثُرَ فيه الاضطراب كما كَثُرَ في باب الحلال والحرام . فإن أقواماً استحلوا بعض ما حرمه الله ، وأقواماً حرَّموا بعض ما أحل الله تعالىٰ ، وكذلك أقواماً أحدثوا عبادات لم يشرعها الله بل نهىٰ عنها . وأصلُ الدين أن الحلال ما أَحَلَّهُ الله ورسوله ، والحرام ما حَرَّمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، ليس لأحدٍ أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله . قال الله تعالى ﴿ وَأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فَتفرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه خط خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال « هذه سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم قرأ ﴿ وأنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبعوا السُّبُل فَتَفرَّقَ بِكُم عَنْ سبيله ﴾[1]

---

(١) رواه الطيالسي (٢٤٤) وأحمد (٤١٤٢ ، ٤٤٣٧) والنسائي في الكبرى =

وقد ذكر الله تعالىٰ في سورة الأنعام والأعراف وغيرها ما ذمَّ به المشركين حيث حَرَّموا ما لم يحرمه الله تعالى ، كالبحيرة والسائبة(٢) ، واستحلوا ما حَرَّمه الله كقتل أولادهم ، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ﴾ [الشورى : ٢١] ومنه أشياء هي محرمة جعلوها عبادات كالشرك والفواحش ، مثل الطواف بالبيت عراة وغير ذلك .

والكلام في الحلال والحرام له مواضع أخر . والمقصود هنا العبادات فنقول :

العبادات التي يُتقرب بها إلىٰ الله تعالىٰ منها ما كان محبوباً لله ورسوله مرضياً لله ورسوله ، إما واجب وإما

= كما في تحفة الأشراف (٧ : ٤٩) وابن وضاح في البدع والنهي عنها (٧٤) وابن أبي عاصم في السنة (١٧) وابن نصر في السنة (١٤، ١٥) وغيرهم وإسناده حسن .

(٢) قلت: البَحيرة هي الناقة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة هي الناقة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عنهم عليها شيء . من تفسير ابن كثير (٣: ٢٠٣).

مستحب ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ : « ما تَقَرَّب إلـيَّ عبدي بمثل أداء مـا افترضتُ عليـه ، ولا يـزال عبـدي يتقـرَّب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصرُه الـذي يُبصر بـه ، ويده التي يبـطش بها ، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تـرددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه »[٣] .

---

(٣) أخرجه البخاري (١١ : ٣٤٠ ـ ٣٤١) من حديث أبي هـريرة ، وفيـه : « ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه » . وفيه « استعـاذ بي » بدلا من « استعاذني » ودون قوله « قبض »، ودون قوله : « لابـد لـه منه » بـل ورد هذا الشـطر من قول وهب بن منبـه موقـوفـا عليـه ، أخرجه أبو نعيم(٤ : ٣٢).

وللحـديث شـواهـد كثيرة ، يـراجـع تخـريجهـا في سلسلة الأحـاديث الصحيحة (٤ : ١٨٣ ـ ١٩٣).

وزيادة « فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي » ذكر الشيخ الألباني في المصدر السابق أنه لم يرها في جميع المصادر التي خرج الحديث منها ، ولم يعزها الحافظ ابن حجر في الفتح إلى أحد (١١ : ٣٤٤) إلا أنه نقلها عن الطوفي في كلام له .

ومعلوم أن الصلاة منها فرض ، وهي الصلوات الخمس ، ومنها نافلة كقيام الليل وكذلك الصيام فيه فرض ، وهو صوم شهر رمضان ، ومنه نافلة كصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وكذلك السفر إلىٰ المسجد الحرام فرض ، وإلىٰ المسجدين الآخرين : مسجد النبي ﷺ وبيت المقدس - مستحب .

وكذلك الصدقة منها ماهو فرض ومنها ماهو مستحب ، وهو العفو كما قال تعالى : ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونِ قُلِ العَفْوَ**﴾ [البقرة : ٢١٩] .

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يا ابن آدم ، إنك إن تنفق الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تُلام علىٰ كفاف ، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ ، وابدأ بمن تعول »(٤) والفرق بين الواجب والمستحب له موضع آخر غير هذا ، والمقصود هنا

---

(٤) أخرجه أحمد (٥: ٢٦٢) ومسلم (٢ : ٧١٨) والترمذي (٢٣٤٣) والبيهقي (٤ : ١٢٨) من حديث أبي أمامة .

وفيها : « أن تبذل » بدلا من « أن تنفق »، وقوله « ابدأ بمن تعول » قبل قوله « اليد العليا خير من اليد السفلى ».

الفرق بين ماهو مشروع سواء كان واجباً أو مستحباً ، وماليس بمشروع .

فالمشروع هو الذي يُتقرب به إلىٰ الله تعالى ، وهو سبيل الله ، وهو البِرّ والطاعة والحسنات والخير والمعروف ، وهو طريق السالكين ، ومنهاج القاصدين والعابدين ، وهو الذي يسلكه كُلُّ مَنْ أراد الله وسلك طريق الزهد والعبادة ، وما يُسمىٰ بالفقر والتصوف ونحو ذلك .

ولا ريب أن هذا يدخل فيه الصلواتُ المشروعة واجبها ومستحبها ، ويدخل في ذلك قيام الليل المشروع وقراءة القرآن علىٰ الوجه المشروع ، والأذكار والدعوات الشرعية ، وماكان من ذلك مؤقتاً بوقتٍ كطرفي النهار ، وما كان متعلقاً بسببٍ كتحية المسجد ، وسجود التلاوة ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستخارة ، وما ورد من الأذكار والأدعية في ذلك . وهذا يدخل فيه أمور كثيرة ، وفي ذلك من الصفات ما يطول وصفه ، وكذلك يدخل فيه الصيام الشرعي كصيام نصف الدهر وثلثه أو عُشره وهو صيام ثلاثة أيامٍ من كل شهر ، ويدخل فيه السفر الشرعي ، كالسفر إلىٰ مكة وإلىٰ المسجدين

الاخرين ، ويدخل فيه الجهاد علىٰ اختلاف أنـواعه ، وأكثرُ الأحاديث النبوية في الصلاة والجهاد ، ويدخل فيه قراءة القرآن على الوجه المشروع .

والعبادات الدينية أصولها الصلاة والصيـام والقراءة التي جاء ذكرها في الصحيحين في حديث عبـدالله بن عمـرو بن العاص ، لمـا أتـاه النبي ﷺ وقـال : « ألم أُحـدَّث أنك قلتَ لَأصـومنَّ النهار ، ولأقـومنَّ الليل ، ولأقرأن في ثلاث ؟ » قال : بلىٰ . قال « فـلا تفعل ، فـإنك إذا فعلت ذلـك هجمت لـه العين ، ونفهت لـه النفس »[٥] ثم أمره بصيام ثـلاثة أيـام من كل شهـر ، فقال : إني أطيق أكثر من ذلك ، فانتهى به إلىٰ صوم يوم وفطر يوم ، فقال : إني أطيق أكثر من ذلك ، فقال : « لا أفضل من ذلك » وقال : « أفضل الصيام صيام داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقىٰ . وأفضل القيام قيام داود ، كان ينام الليل ويقوم ثلثه وينام سدسـه » وأمره أن يقرأ القرآن في سبع[٦] .

---

(٥) هجمت : أي غارت ودخلت في موضعها . ونفهت : أعيت وكلت .

(٦) لعل المؤلف رحمه الله صاغه من عدة روايات ، وهي في أحمد (٢ : ١٨٩) والبخاري (٣ : ٣٨ ، ٤ : ٢٢٤ ، ٦ : ٤٥٣ ـ ٤٥٥ ، ٤٥٥) ومسلم (٢ : ٨١٥ ـ ٨١٨) والنسائي (٣ : ٢١٢ ـ ٢١٥) .

ولماكانت هذه العبادات هي المعروفة قال في حديث الخوارج الذي في الصحيحين : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »[7] فذكر اجتهادهم بالصلاة والصيام والقراءة ، وإنهم يغلون في ذلك حتىٰ تحقر الصحابة عبادتهم في جنب هؤلاء .

وهؤلاء غلوا في العبادة فلا فقه فآل الأمر بهم إلىٰ البدعة فقال : « يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة . أينما وجدتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة »[8] فإنهم قد استحلوا دماء المسلمين وكَفَّروا من خالفهم . وجاءت فيهم

(٧) أخرجه البخاري (٩:٩٩، ٩٩ ـ ١٠٠، ١٢ : ٢٨٣) ومسلم (٢ : ٧٤٣ ـ ٧٤٤)من حديث أبي سعيد الخدري ، واللفظ من تصرف المؤلف .
والحديث متواتر ، وقد ذكر ألفاظه وطرقه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧: ٢٨٩ ـ ٣٠٥).

(٨) أخرجه البخاري (١٢ : ٢٨٣) ومسلم (٢ : ٧٤٧)من حديث علي ابن أبي طالب .

الأحاديث الصحيحة . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : صحَّ فيهم الحديث من عشرة أوجه . وقد أخرجها مسلم في صحيحه وأخرج البخاري قطعةً منها .

ثم هذه الأجناس الثلاثة مشروعة[9] ولكن يبقىٰ الكلام في القدر المشروع منها . وله صنف كتاب الاقتصاد في العبادة . وقال أبيّ بن كعب وغيره « اقتصادٌ في سنة ، خيرٌ من اجتهادٍ في بدعة »[10] .

والكلام في سرد الصنوم وصيام الدهر سوىٰ يومي العيد وأيام التشريق وقيام جميع الليل ، هل هو مستحب

(٩) أي الصلاة والصيام والقراءة .

(١٠) الذي ورد عن أبي هو : « اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في خلاف سنة »أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٩٦ ـ ١٩٧) وأبو نعيم (١ : ٢٥٢ ـ ٢٥٣) وابن الجوزي في التلبيس (ص ١٧) واسناده حسن .
وورد ذلك عن ابن مسعود: أخرجه الدارمي (٢٢٣) وابن نصر في السنة (٩٢) واللالكائي (١٣ ، ١٤ ، ١١٤) وابن عبد البر في الجامع (٢ : ١٨٨) وغيرهم وإسناده صحيح . يراجع التعليق على مفتاح الجنة للسيوطي (٢٧٨) .
وورد من قول أبي الدرداء: أخرجه اللالكائي (١١٥) وإسناده حسن . وأخرجه ابن نصر (١٠٤)من طريق آخر وفيه جهالة .

ـ كما ذهب إلىٰ ذلك طائفةٌ من الفقهاء والصوفية والعباد ، أو هو مكروه ـ كما دلت عليه السنة وإن كان جائزاً ؟ لكن صوم يوم وفطر يوم أفضل ، وقيام ثلث الليل أفضل ، ولبسطه موضع آخر .

إذ المقصود هنا الكلام في أجناس عبادات غير مشروعة حدثت في المتأخرين كالخلوات فإنها تشبه بالاعتكاف الشرعي . والاعتكاف الشرعي في المساجد كما كان النبي ﷺ يفعله هو وأصحابه من العبادات الشرعية .

وأما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحنثه[11] بغار حراء قبل الوحي وهذا خطأ ، فإنه ما فعله ﷺ قبل النبوة إن كان قد شرعه بعد النبوة فنحن مأمورون باتّباعه فيه وإلا فلا . وهو من حين نَبَّأَهُ الله تعالىٰ لم يصعد بعد ذلك إلىٰ غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون . وقد أقام صلوات

---

(11) التحنث التعبد ، وأصله التنزه من الحنث وهو الإثم وزناً ومعنىً كالتحرج، ويقرب منه التحنف وأصل معناه الميل عن القبيح إلى الحسن ، والحنيفية ملة إبراهيم، واختلف في عبادة نبينا ﷺ في غار حراء قبل النبوة فقيل كانت تفكرا وقيل غير ذلك .

الله عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة ودخل مكة في عمرة القضاء وعام الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة وأتاها في حجة الوداع وأقام بها أربع ليال ، وغار حراء قريب منه ولم يقصده ، وذلك أن هذا كانوا يأتـونه في الجاهلية ، ويُقال أن عبدالمطلب هو سَنَّ لهم إتيانه لأنه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التي جاء بها بعـد النبـوة صلوات الله عليـه كـالصـلاة والاعتكـاف في المساجد ، فهذه تُغني عن إتيان حراء بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي ، فإنه لم يكن يقـرأ بل قـال له الملك عليـه السـلام « اقـرأ » قـال صلوات الله عليـه وسـلامـه : « فقلت : لست بقـارىء »[11] ولا كـانـوا يعرفون هذه الصلاة . ولهذا لما صلاها النبي ﷺ نهاه عنها من نهاه من المشركين كأبي جهل ، قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الذي يَنْهىٰ * عَبْداً إذا صلَّى * أرأيتَ إنْ كَانَ عَلىٰ الهُـدىٰ * أَوْ أَمَـرَ بـالتقـوىٰ * أرأيتَ إنْ كَـذَّبَ وتولَّىٰ * ألم يَعْلَمْ بأَنَّ الله يرىٰ * كلا لَئِنْ لم يَنْتَهِ لنسفعا

---

(١٢) لفظه عند البخاري : « ما أنا بقارىء » . أخرجه في صحيحه (١ : ٢٢ ، ٦ : ٤٢٢ ، ٨ : ٧١٥ ، ١٢ : ٣٥١) .

بالناصِيَة * ناصيةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ *فَلْيَدْعُ نـادِيَهُ * سَنَـدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلاَّ لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقترب ﴾ [العلق : ٩ - ١٩] .

وطائفة يجعلون الخلوة أربعين يوماً ويعـظمون أمـر الأربعينية ويحتجون فيها بأن اللهتعالى واعد موسىٰ عليه السلام ثلاثين ليلةًوأتمهـا بعشر ، وقـد روي أن موسى عليه السلام صامها وصام المسيح أيضاً أربعين لله تعالى وخوطب بعدها . فيقولون : يحصل بعـدها الخـطاب والتنزل كما يقـولون في غـار حراء حصـل بعده نـزول الوحي .

وهذا أيضاً غلط فإن هذه ليست من شريعة محمد ﷺ بل شُرعت لمـوسىٰ عليه السـلام كما شُـرع له السبت والمسلمون لا يسبتون ، وكما حرم في شرعه أشياء لم تُحرم في شرع محمد ﷺ فهذا تمسك بشرع منسوخ ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة .

وقد جُرِّبَ أن مَنْ سلك هذه العبادات البدعية أتتـه الشياطين وحصل له تنزل شيطاني ، وخطاب شيطاني ، وبعضهم يطير به شيطانه ، وأَعْرِفُ من هؤلاء عدداً طلبوا

أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل ، فنزلت عليهم الشياطين لأنهم خرجوا عن شريعة النبي ﷺ التي أمروا بها . قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ علىٰ شَريعةٍ مِنَ الأمْر فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أَهْوآءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُون * إنَّهم لَنْ يُغْنوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإنَّ الظالمينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيآءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ المُتَّقين** ﴾ [الجاثية : ١٨ ـ ١٩] وكثيرٌ منهم لا يحد للخلوة مكاناً ولا زماناً بل يأمر الإنسان أن يخلوا في الجملة .

ثم صار أصحاب الخلوات فيهم من يتمسك بجنس العبادات الشرعية : الصلاة والصيام والقراءةوالذكر . وأكثرهم يخرجون إلىٰ أجناسٍ غير مشروعة ، فمن ذلك طريقة أبي حامد ومَنْ تَبِعَهُ ، وهؤلاء يأمرون صاحب الخلوة أن لا يزيد علىٰ الفرض ، لا قراءةً ولا نظراً في حديث نبوي ولا غير ذلك ، بل قد يأمرونه بالذكر ، ثم يقولون ما يقوله أبو حامد : ذكر العامة : لا إلّه إلا الله ، وذكر الخاصة : الله الله ، وذكر خاصة الخاصة : هو هو .

والذكر بالاسم المفرد مظهراً ومضمراً بدعة في الشرع وخطأ في القول واللغة ، فإن الاسم المجرد ليس هو

كلاماً لا إيماناً ولا كفراً .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »(١٣) . وفي حديث آخر : « أفضل الذكر لا إله إلا الله »(١٤) وقال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير »(١٥) والأحاديث في فضل هذه الكلمات كثيرة صحيحة .

---

(١٣) ورد من حديث سمرة بن جندب ، ولفظه: « أربع من أطيب الكلام ، وهن من القرآن، لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله . . الحديث ». أخرجه أحمد (٥ : ١١) وإسناده صحيح .
وأخرجه مسلم (٣: ١٦٨٥) من حديث سمرة كذلك مرفوعاً : « أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله . . الحديث ».

(١٤) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣١) والترمذي (٣٣٨٣) وحسنه وابن ماجه (٣٨٠٠) وغيرهم من حديث جابر بن عبد الله . وإسناده حسن . ويراجع تخريجه مطولاً في التعليق على الشكر لابن أبي الدنيا (١٠٣).

(١٥) أخرجه مالك في الموطأ (٢ : ٣٨) من حديث طلحة بن عبيدالله بن =

وأما ذكر الاسم المفرد فبدعة لم يُشرع وليس هو بكلام يعقل ولا فيه إيمان ، ولهذا صار بعض من يأمر به من المتأخرين يبين أنه ليس قصدنا ذكر الله تعالىٰ ، ولكن جمع القلب على شيء معين حتىٰ تستعد النفس لما يرد عليها، فكان يأمر مريده بأن يقول هذا الاسم مرات ، فإذا اجتمع قلبه ألقى عليه حالاً شيطانياً فيلبسه الشيطان ويخيل إليه أنه قد صار في الملأ الأعلىٰ ، وأنه أُعطي ما لم يعطه محمد ﷺ ليلة المعراج ولا موسىٰ عليه السلام يوم الطور ، وهذا وأشباهه وقع لبعض مَنْ كان في زماننا .

وأبلغ من ذلك مَنْ يقول ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان ، حتىٰ يقول لا فرق بين قولك يا حي وقولك يا جحش . وهذا مما قاله لي شخصٌ منهم وأنكرتُ ذلك عليه ، ومقصودهم بذلك أن تجتمع النفس حتى يتنزل فيها الشيطان .

= كريز مرسلاً دون قوله: « له الملك . . إلى آخره »، والحديث وان كان فيه إرسال فله شواهد أخرى تقويه منها بزيادة الشطر الذي لم يروه مالك، تراجع مع الكلام عليها في سلسة الأحاديث الصحيحة (٤ : ٦ - ٨).

ومنهم من يقول : إذا كان قصد وقاصد ومقصود فاجعل الجميع واحداً فيدخله في أول الأمر في وحدة الوجود .

وأما أبو حامد وأمثاله(١٦) ممن أَمروا بهذه الطريقة فلم يكونوا يظنون أنها تُفضي إلىٰ الكفر ، لكن ينبغي أن يُعرف أن البدع بريد الكفر ، ولكن أمروا المريد أن يُفرغ قلبه من كل شيءٍ ، حتىٰ قد يأمروه أن يقعد في مكان مظلم ويُغطي رأسه ويقول : الله الله ، وهم يعتقدون أنه إذا فرغ قلبه استعد بذلك فينزل علىٰ قلبه من المعرفة ماهو المطلوب بل قد يقولون : أنه يحصل له من جنس ما يحصل للأنبياء .

ومنهم من يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ، وأبو حامد يُكثر من مدح هذه الطريقة في الأحياء وغيره(١٧) كما أنه يبالغ في مدح الزهد ، وهذا

---

(١٦) يعني بأمثاله من سلكوا طريقة التصوف بعد التفقه في الدين ، وقلما تُفضي بأمثالهم إلىٰ الكفر إلا إذا اختلت عقولهم بالأفراط في التقشف والاستسلام للتخيلات .

(١٧) ولكنه لم يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ولا مثله بل هو =

من بقايا الفلسفة عليه . فإن المتفلسفة كابن سينا وأمثاله يزعمون أن كل ما يحصل في القلوب من العلم للأنبياء وغيرهم فإنما هو من العقل الفعال . ولهذا يقولون النبوة مكتسبة فإذا تفرغ صفىٰ قلبه عندهم وفاض علىٰ قلبه من جنس ما فاض على الأنبياء وعندهم أن موسىٰ بن عمران ﷺ كَلَّمَ من سماء عقله لم يسمع الكلام من خارج ، فلهذا يقولون إنه يحصل لهم مثل ما حصل لموسىٰ وأعظم مما حصل لموسىٰ .

وأبو حامد يقول إنه سمع الخطاب كما سمعه موسىٰ عليه السلام وإن لم يُقصد هو بالخطاب، وهذا كله لنقص إيمانهم بالرسل وأنهم آمنوا ببعض ما جاءت به الرسل وكفروا ببعض، وهذا الذي قالوه باطل من وجوه :

أحدها : أن هذا الذي يُسمونه العقل الفعال باطل لا حقيقة له كما قد بُسط هذا في موضع آخر .

= مثل الشافعي علىٰ نفسه ويفضل الصحابة علىٰ الشافعي ، بل بَيـنَّ غرورَ بعض الصوفية وضلالهم في ذلك في كتاب « ذم الغرور » من الاحياء .

الثاني : أن ما يجعله الله في القلوب يكون تارةً بواسطة الملائكة إن كان حقاً، وتارةً بواسطة الشياطين إذا كان باطلاً[١٨]. والملائكة والشياطين أحياء ناطقون كما قد دلت علىٰ ذلك الدلائل الكثيرة من جهة الأنبياء، وكما يَدَّعي ذلك من باشره من أهل الحقائق. وهم يزعمون أن الملائكة والشياطين صفات لنفس الإنسان فقط. وهذا ضلال عظيم.

الثالث : إن الأنبياء جاءتهم الملائكة من ربهم بالوحي، ومنهم من كَلَّمه الله تعالىٰ فَقَرَّبه وناداه، كما كلم موسىٰ عليه السلام، لم يكن ما حصل لهم مجرد فيض كما يزعمه هؤلاء.

---

(١٨) وأبو حامد قال هذا بعينه في شرح عجائب القلب واستشهد له بحديث الترمذي والنسائي في الكبير في لمة الملك بابن آدم ولمة الشيطان ، فهو لايقول أن الملائكة والشياطين صفات للنفس بل يقول فيها ما قاله أهل السنة الجماعة في مواضع كثيرة من الاحياء فمن المستغرب من الشيخ إنكاره عليه .

الـرابع : أن الإنسـان إذا فَرَّغَ قلبـه من كل خـاطر، فمن أين يعلم أن ما يحصل فيه حق؟ هذا إمـا أن يعلم بعقل أو سمع، وكلاهما لم يدل علىٰ ذلك(١٩).

الخامس : أن الذي قد عَلِمَ بالسمع والعقل أنـه إذا فَـرَّغَ قلبـه من كـل شيء(٢٠) حلت فيـه الشيـاطين ثم تنزلت عليه الشياطين، كما كـانت تتنزل علىٰ الكهـان، فإن الشيطان إنمـا يمنعه من الـدخول إلىٰ قلب ابن آدم مـا فيه من ذكر الله الذي أُرسل بـه رسله، فإذا خـلا من ذلك تَوَّلاه الشيطان، قال الله تعـالى: ﴿ومن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمن نُقَيِّضْ لَـهُ شَيْطانـاً فَهُوَ لـه قَرينٌ* وَإنَّهم

---

(١٩) فيه أنه إذا وافق الشرع يعلم به أنه حق وإلا حكم بأنه باطل كما روى عن الشيخ عبدالقادر الجيلي الذي يعترف لـه شيخ الإسـلام بالـولاية والكرامات أنه رأى مرة نوراً وسمع منه خطاباً فيه أن ربه يقول له قد أحللت لك المحرمات، فأجابه اخسأ يا لعين، فانقلب دخاناً وقـال له نجوت مني بفقهك.

(٢٠) تفريغ القلب من كل شيء محال وإنما يجتهدون في تفريغه من الخـواطر التي تشغله عن ذكر الله ومراقبته كما صرح به أبو حامد.

﴿لِيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧] وقالَ الشيطانُ فيما أخبر الله عنه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] والمخلصون هم الذين يعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً، وإنما يعبد الله بما أمر به علىٰ ألسنة رسله، فمن لم يكن كذلك تولته الشياطين.

وهذا بابٌ دخل فيه أمر عظيم علىٰ كثير من السالكين واشتبهت عليهم الأحوالُ الرحمانية بالأحوال الشيطانية، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكهان والسحرة، وظنوا أن ذلك من كرامات أولياء الله المتقين كما قد بسط الكلام علىٰ هذا في غير هذا الموضع .

السادس: إن هذه الطريقة لو كانت حقاً فانما تكون في حق من لم يأته رسول. فأما مَنْ أتاه رسول وأُمر

بسلوك طريق فمن خالفه ضل. وخاتم الرسل ﷺ قد أَمَرَ أمته بعباداتٍ شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ما ينزل .

فهذه الطريقة لو قُدِّرَ أنها طريق لبعض الأنبياء لكانت منسوخة بشرع محمد ﷺ، فكيف وهي طريقةٌ جاهليةٌ لا توجب الوصول إلىٰ المطلوب إلا بطريق الاتفاق، بأن يقذف الله تعالى في قلب العبد إلهاماً ينفعه، وهذا قد يحصل لكل أحد ليس هو من لوازم هذه الطريق؟

ولكن التفريغ والتخلية التي جاء بها رسول الله أن يفرغ قلبه مما لا يحبه الله، ويملؤه بما يحبه الله، فيفرغهِ من عبادة غير الله ويملؤه بعبادة الله، وكذلك يفرغه عن محبة غير الله ويملؤه بمحبة الله، وكذلك يخرج منه عند خوف غير الله ويدخل فيه خوف الله تعالى، وينفي عنه التوكل علىٰ غير الله ويثبت فيه

التـوكـل علىٰ الله[٢١] وهـذا هـو الإسـلام المتضمن للإيمان الذي يمدّه القرآن ويقويه، لا يناقضه وينافيـه، كمـا قال جنـدب وابن عمر «تعلمنـا الإيمان ثم تعلمنـا القرآن فازددنا إيماناً»[٢٢].

وأمـا الاقتصار علىٰ الـذكـر المجـرد الشـرعي مثـل قول: لا إله إلا الله ـ فهذا قد ينفع به الانسـان أحيانـاً، لكن ليس هذا الذكـر وحده هـو الطريق إلىٰ الله تعـالى

---

(٢١) وأبو حامد يقصد كل هذا هذا بتصوفه وفصله في أحيائه، وقد أخـطأ في بعض المسـائـل كـالمبـالغـة في الـزهـد كـأكـثر العبـاد من السلف والخلف، والقـول بالجـبر كأكـثر الأشعـريـة وهـذا من خـطأ العلماء الاجتهـادي الذي ذكـر شيخ الإسـلام مسـائـل منـه عن الصحـابـة والتابعين وغيرهم وعذرهم فيه بتأولهم واجتهادهم.

(٢٢) ورد عن جندب رضي الله عنه: قال: «كنا مع النبيﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمـان قبل أن نتعلم القـرآن، ثم تعلمنا القـرآن فازددنا به إيماناً».

أخرجه ابن مـاجه (٦١)، وقـال البوصيـري في الزوائـد: «إسناد هذاالحديث صحيح، رجاله ثقات». وأخرجه الطبراني في الكبـير (٢: ١٦٥ / ١٦٧٨) وعنه المزي في التهذيب (٧: ٢٨٨).

دون ما عداه، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء[٢٣] والمفضول في وقته الذي شرع فيه أفضل من الفاضل كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من القراءة، ثم قد يُفتح علىٰ الإنسان في العمل المفضول ما لا يُفتح عليه في العمل الفاضل. وقد ييسر عليه هذا دون هذا فيكون هذا أفضل في حقه لعجزه عن الأفضل كالجائع إذا وجد الخبز المفضول متيسراً عليه والفاضل متعسراً عليه فإنه ينتفع بهذا الخبز المفضول، وشبعه واغتذاؤه به حينئذ أولىٰ به.

السابع : أن أبا حامد يشبه ذلك بنقش الصين والروم علىٰ تزويق الحائط وأولئك صقلوا حائطهم حتىٰ بمثل ما صقله هؤلاء[٢٤]، وهذا قياسٌ فاسد لأن

---

(٢٣) الصوفية الشرعيون كأبي حامد يوافقونه في كل هذا إلا أنهم يقولون بالاكثار من الذكر وقد تكرر في القرآن الترغيب فيه .

(٢٤) يشير إلىٰ المثل الذي ضربه لتطهير القلب وهو أن صناع الروم نقشوا جانباً من صفة بيت لأحد الملوك بأبدع النقوش ، وصناع الصين =

هذا الذي فرغ قلبه لم يكن هنـاك قلب آخر يحصـل له به التحلية كمـا حصل لهـذا الحائط، بـل هو يقـول إن العلم منقـوش في النفس الفلكيـة ويُسمي ذلـك اللوح المحفوظ تبعاً لابن سينا(٢٥).

= صقلوا الجانب الآخر حتىٰ صار كالمرآة، فلما زال الحجاب المضروب بينهما انطبـع ذلك النقش كله في الجـانب المصقول، فكـذلك القلب الذي يصقل بذكر الله تعالى ينطبع فيه بعض العلوم المكتوبة في اللوح المحفوظ أو قلوب الملائكة.

(٢٥) إنمـا قال أبـو حامـد في اللوح مـا قـالـه علماء الشرع لا الفـلاسفـة، وعبارته في الأحياء هكذا: «فكـما أن المهندس يصـور أبنية الـدار في بيـاض ثم يخرجهـا إلىٰ الوجود علىٰ وفق تلك النسخة فكذلك فـاطـر السمـوات والأرض كتب نسخـةَ العـالم من أوله إلىٰ آخـره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلىٰ الوجود وعلىٰ وفق تلك النسخة» أ هـ

فهو يقول في كتابه مقادير الخلق هي من أفعـال الفاطـر الاختياريـة، والنفس الفلكية عند الفلاسفة قديمة أزلية بما فيهـا. وقال أبـو حامـد «إن حقـائق الأشياء المسـطورة في اللوح المحفوظ مسـطورة في قلوب المـلائكة المقـربين، وضرب مثـلاً لاستفـادة القلب العلم منهم ومن اللوح بالرؤيـا الصادقـة واستشهد لاستعـداده لذلـك بحديث «سَبَقَ المُفْرِدون» وتفسيرهﷺ لهم بـ «الذاكرين الله كثيـراً والذاكـرات» وهو في صحيح مسلم [٤: ٢٠٦٣] والمستـدرك [١: ٤٩٥ - ٤٩٦]، =

وقد بيَّنا في غير هذا الموضع أن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله ورسوله ليس هو النفس الفلكية، وابن سينا ومَنْ تبعه أخذوا أسماء جاء بها الشرع فوضعوا لها مسميات مخالفة لمسميات صاحب الشرع ثم صاروا يتكلمون بتلك الأسماء فيظن الجاهل أنهم يقصدون بها ما قصده صاحب الشرع، فأخذوا مخ الفلسفة وكسوه لحاء الشريعة، وهذا كلفظ الملك والملكوت والجبروت واللوح المحفوظ والملك والشيطان والحدوث والقدم وغير ذلك وقد ذكرنا من ذلك طرفاً في الرد على الإتحادية لما ذكرنا قول ابن سبعين وابن عربي وما يوجد في كلام أبي حامد ونحوه من أصول هؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يحرِّفون كلام الله ورسوله عن مواضعه كما فعلت طائفة القرامطة الباطنية .

= واستشهد في فصل آخر بحديث المحدثين أي الملهمين وكون عمر ـ رضي الله عنه ـ منهم . ولا تتسع هذه الحاشية لبسط الموضوع .

والمقصود هنا أنه لو كانت العلوم تنزل علىٰ القلوب من النفس الفلكية كما يزعم هؤلاء فلا فرق في ذلك بين الناظر والمستدل والمفرغ قلبه، فتمثيل ذلك بنقش أهل الصين والروم تمثيل باطل.(٢٦)

ومن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة وقوت معين ولهم تنزلات معروفة. وقد بسط الكلام عليها ابنُ عربي الطائي ومَنْ سلك سبيله كالتلمساني وهي تنزلات شيطانية قد عرفتها وخبرتُ ذلك من وجوه

---

(٢٦) ليس في هذا الموضوع شيءٌ من التحقيق الذي نعهده في كلام شيخ الإسلام والمظلوم فيه أبو حامد فإنه ليس ممن قرنه بهم من الفلاسفة واتحادية الصوفية، ولم يقل بنزول العلوم من النفس الفلكية، وقد فَرَّق بين الناظر والمستدل وبين المفرغ قلبه بذكر الله من الخواطر الشياطية بأوضح بيان ومنها هذا التمثيل، وكأن الشيخ لم يراجع كلامه حين كتب هذا ولم يكن مما عنى بحفظه كما يحفظ كتب الحديث وألفاظها، ولا بمعانيه كما عنى بمذاهب الفقه وغيرها، لأنه لم يكن يراه يستحق هذه العناية. وسبحان من أحاط بكل شيء علماً، وقال في وصف كتابه ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدوا فِيه اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾.

متعددة، لكن ليس هذا موضع بسطها، وإنما المقصود التنبيه على هذا الجنس .

ومما يأمرون به الجوع والسهر والصمت مع الخلوة بلا حدود شرعية، بل سهر مطلق، وجوع مطلق، وصمت مطلق. مع الخلوة، كما ذكر ذلك ابن عربي وغيره وهي تُوَلِّدُ لهم أحوالاً شيطانية. وأبو طالب قد ذكر بعض ذلك، لكن أبو طالب أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من هؤلاء، ولكن يذكر أحاديث كثيرة ضعيفة بل موضوعة، من جنس أحاديث المسبعات التي رواها عن الخضر عن النبي ﷺ وهو كذب محض وإن كان ليس فيه إلا قراءة قرآن ويذكر أحياناً عبادات بدعية من جنس ما بالغ في معراج الجوع هو وأبو حامد وغيرهما وذكروا انه يزن الخبز بخشب رطب، كلما جف نقص الأكل[٢٧].

---

(٢٧) إن بعض هذه الرياضيات لم يكونوا يعدونها عبادة مطلوبة شرعاً بل تجارب نافعة كتقليل الطعام بالتدريج الذي يؤمن به ضرر تغيير العادة .

وذكــروا صلوات الأيـام والليــالي ، وكلهـا كــذب مـوضـوعـة ، ولهـذا قـد يـذكـرون مـع ذلـك شيئـاً من الخيالات الفاسدة وليس هذا موضع بسط ذلك .

وإنما الغرض التنبيـه بهذا علىٰ جنس من العبـادات البدعية . وهي الخلوات البدعية سـواء قُدِّرت بـزمانٍ أو لم تُقدر لما فيها من العبادات البدعية . أما التي جنسها مشـروع ولكن غير مقـدرة . وإمـا مـا كـان جنسـه غيـر مشروع ، فأما الخلوة والعزلة والإنفراد المشروع فهو مـا كان مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب(٢٨) .

فالأول كاعتزال الأمور المحرمة ومجـانبتها كمـا قال تعالى : ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُون في آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتىٰ يَخُوضُوا في حـديثٍ غيره﴾ [الأنعـام : ٦٨] ومنـه قولـه تعـالى عن الخليـل : ﴿فَلَمـا اعْتَـزَلَهُم ومـا

---

(٢٨) ومنه ما يقوم الدليل عـلىٰ شرعية جنسـه وإن لم يرد نص في الأمـر به بعينه ، وقد بسط أبو حامد في كتاب العزلة من الاحياء فوائد العزلـة وغوائلها لمعرفة الراجح من المرجوح منها .

يَعْبـدُون مِنْ دونِ اللهِ وَهَبْنـا لَـهُ إسحـاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُـلًّا جَعَلْنـا نبيـاً﴾ [مـريم: ٤٩] وقـولـه عن أهـل الكهف: ﴿وَإذ اعْتَـزَلْتُمـوهُمْ ومــا يَعْبُـدونَ إلاَّ الله فـآووا إلىٰ الكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦] فـإن أولئـك لم يكــونـوا في مكـان فيه جمعـة ولا جماعـة، ولا من يأمـر بشرع نبي فلهـذا آووا إلى الكهف وقـد قــال مـوسىٰ: ﴿وَإنْ لَمْ تُؤمنوا لِي فاعتزِلون﴾ [الدخان: ٢١].

وأمـا اعتزال النـاس في فضـول المبـاحـات ومـا لا ينفع، وذلك بالزهد فيه فهو مستحب وقد قـال طاوس: نعم صومعة الرجل بيته يكف فيه بصره وسمعه.

وإذا أراد الإنســان تحقيق علم أو عمـل فتخلى في بعض الأماكن مع محـافظتـه على الجمعة والجمـاعة، فهذا كما في الصحيحين أن النبي ﷺ سئل: أي الناس أفضـل؟ قال: «رجـل آخذ بعنـان فرسـه في سبيـل الله كلمـا سمع هيعـة[٢٩] طار إليهـا يتتبع المـوت مظانـه،

(٢٩) الهيعة الصوت الذي نفزع منه ونخافه من عدو .

ورجل معتزل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدع الناس إلا من خير»[٣٠] وقوله «يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة» دليل على أن له مالاً يزكيه وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم فقد قال صلوات الله عليه: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان»[٣١] وقال: «عليكم بالجماعة، فإنما يأخذ

---

(٣٠) قلت: أخرج البخاري (٦: ٦) عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يارسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله». قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره».
وأخرج مسلم (٣: ١٥٠٣ ـ ١٥٠٤) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة من رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير».
فكأن المؤلف ـ رحمه الله ـ جعلهما حديثاً واحداً، والله أعلم.
(٣١) أخرجه أحمد (٥ : ١٩٦) و النسائي (٢ : ١٠٦) وأبو داود (٥٤٧) =

الذئب القاصية من الغنم». [٣٢].

فصل

وهـذه الخلوات قد يقصـد أصحابُهـا الأمـاكنَ التي ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يُصلىٰ فيه الصلوات الخمس إمـا مساجـد مهجورة وإمـا غير مسـاجـد مثـل الكهـوف والغيـران التي في الجبـال، ومثـل المقـابـر لاسيما قبر مَنْ يُحسن به الظن ومثـل المقابـر التي يُقال أن بها أثر نبي أو رجل صالـح . ولهذا يحصـل لهَم في هذه المواضـع أحوال شيـطانية، يـظنون أنهـا كرامـات رحمانية .

فمنهم من يـرىٰ أن صاحب القبـر قد جـاء إليه وقـد مات من سنين كثيرة ويقول أنا فلان ، وربما قال له : نحن

= وابن خزيمة (١٤٨٦) وابن حبان (٣ : ٤١٠ ـ الاحسان) ، والحاكم (١ : ٢٤٦) وصححه ووافقه الذهبي . وإسناده حسن ، وهـو من حديث أبي الدرداء .

(٣٢) جزء من الحديث المتقدم ، وصنيع المؤلف يوهم أنهما حديثان .

إذا وُضعنا في القبر خرجنا كما للتونسي مع نعمان السلامي .

والشياطين كثيراً ما يتصورون بصورة الانس في اليقظة والمنام، وقد تأتي لمن لا يعرف فتقول: أنا الشيخ فلان أو العالم فلان، وربما قالت: أنا أبو بكر وعمر، وربما قال: أنا المسيح أنا موسىٰ أنا محمد، وقد جرىٰ مثل ذلك أنواع أعرفها(٣٣) وثم من يصدق بأن الأنبياء يأتون في اليقظة في صورهم، وثم شيوخ لهم زهد وعلم ودين يصدقون بمثل هذا .

---

(٣٣) من ذلك أنه ذُكر له رحمه الله أنه رُؤي في بعض البلاد يعظ التتار وهو لم يذهب إلىٰ تلك البلاد ، فعلل ذلك بقوله : لعل بعض إخواننا من مسلمي الجن تمثل في صورتنا وصار يعظ هؤلاء الناس لأجل أن يقبل وعظه . ولم يقل أن ذلك شيطان لأنه كان يأمر بالخير ، وبناءً عليه لا ينبغي أن يُقال فيمن يرون بعض الأنبياء أو الصحابة يأمرونهم بالحق والخير أنهم رأوا شياطين بصورتهم تأمرهم بذلك وإنما يصح أن يقال ذلك فيمن يأمر بالمنكر وينهىٰ عن المعروف شرعاً كما وقع للشيخ عبد القادر . والتحقيق أن أكثر هذه الصور خيالية سببها كثرة الفكر .

ومن هؤلاء مَنْ يظن أنه حين يأتي إلىٰ قبر نبي أن النبي يخرج من قبره في صورته فيكلمه. ومن هؤلاء مَن رأىٰ في دائر الكعبة صورة شيخ قال إنه إبراهيم الخليل، ومنهم من يظن أن النبي ﷺ خرج من الحجرة وكلمه. وجعلوا هذا من كراماته، ومنهم من يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه.

وبعضهم كان يحكي أن ابن منده كان إذا أشكل عليه حديثٌ جاء إلىٰ الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي ﷺ عن ذلك فأجابه. وآخر من أهل المغرب حصل له مثل ذلك، وجعل ذلك من كراماته، حتى قال ابن عبد البر لمن ظن ذلك : ويحك ! أترىٰ هذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصارْ؟ فهل في هؤلاء من سأل النبي ﷺ بعد الموت وأجابه؟ وقد تنازع الصحابة في أشياء، فهلا سألوا النبي ﷺ فأجابهم، وهذه ابنته فاطمة تُنازع في ميراثه فهلا سألته فأجابها؟(٣٤).

(٣٤) في هذا إن صح ما ذكروه لا يقتضي أن يكون من يرىٰ ذلك أفضل =

فصل

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين قد أُمرنا أن نؤمن بما أُوتوه وأن نقتدي بهم وبهداهم. قال الله تعالى: ﴿قُولوا آمنَّا باللهِ وما أُنزِلَ إلَينا وما أُنْزِلَ إلىٰ ابراهيمَ واسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسْبَاطِ ومَا أُوتيَ موسىٰ وعيسىٰ ومآ أوتيَ النَّبِيُّون مِنْ رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

= من المهاجرين والأنصار ولا من لا يرىٰ ما رآه إذ يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل ولا الأفضل كما بينه المؤلف في رسالة « المعجزات والكرامات ». وأما المسألة في نفسها فلا شك أن أكثر ما يُروىٰ في رؤية الأرواح تخيلات تعرض للمستعدين لها من المرتاضين ولا سيما أصحاب الأمزجة العصبية ولذلك نرىٰ كل واحد منهم ينقل عنها ما يوافق اعتقاده ومعارفه من حق أو باطل. وبعض الصوفية وغيرهم يذكرون فرقاً بين الرؤية الخيالية التي تشبه الرؤيا المنامية وبين رؤية الأرواح الحقيقة وهذه المسألة قد شغلت فريقاً من علماء النفس وغيرهم في هذا العصر ويحكمون فيها وقائع غريبة، ولما تثبت للجماهير ببرهان علمي ولا بتجربة واضحة لا لبس فيها.

[الأنعام: ٩٠] ومحمد ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده، وقد نسخ بشرعه ما نسخه من شرع غيره، فلم يبقَ طريقٌ إلىٰ الله إلا اتباع محمد ﷺ، فما أمر به من العبادات أمر إيجاب أو استحباب فهو مشروع وما رغب فيه وذكر ثوابه وفضله.

ولا يجوز أن يُقال أن هذا مستحب أو مشروع إلا بدليل شرعي، ولا يجوز أن يُثبت شريعة بحديث ضعيف، لكن إذا ثبت أن العمل مستحب بدليل شرعي ورُوي له فضائل بأسانيد ضعيفة جاز أن تُروىٰ إذا لم يعلم أنها كذب، وذلك أن مقادير الثواب غير معلومة، فإذا رُوي في مقدار الثواب حديثٌ لا يُعرف أنه كذب لم يجز أن يكذب به، وهذا هو الذي كان للإمام أحمد ابن حنبل وغيره يرخصون فيه وفي روايات أحاديث الفضائل. وأما أن يثبتوا أن هذا عمل مستحبٌ مشروعٌ بحديثٍ ضعيفٍ فحاشىٰ لله، كما أنهم اذا عرفوا أن الحديث كذبٌ فإنهم لم يكونون يستحلون روايته إلا أن يثبتوا أنه كذب لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

« من رَوىٰ عني حديثاً يُرىٰ أنه كذب فهو أحد الكاذبين » .[٣٥]

وما فعله النبي ﷺ علىٰ وجه التعبد فهو عبادةٌ يُشرع التأسِّي به فيه . فإذا تخصص زمان أو مكان بعبادة كان تخصيصه بتلك العبادة سنة كتخصيصه مقام إبراهيم بالصلاة فيه، فالتأسي به أن يفعل مثل ما فعل علىٰ الوجه الذي فعل لأنه فعل .

وذلك إنما يكون بأن يقصد مثلما قصد، فإذا سافر لحجٍ أو عمرةٍ أو جهادٍ وسافرنا لذلك كنا متبعين له، وكذلك إذا ضرب لإقامة حد، بخلاف مَنْ شاركه في السفر وكان قصده غير قصده أو شاركه في الضرب وكان قصده غير قصده ، فهذا ليس بمتابعٍ له ، ولو فعل فعلاً بحكم الإتفاق مثل نزوله في السفر بمكان ، أو أن يصب في أدواته ماء فصبه في أصل شجرة ، أو أن تمشي راحلته في

---

(٣٥) أخرجه مسلم (١ : ٩) وابن ماجه (٣٨) من حديث علي بن أبي طالب . بلفظ : « من حدث » . وأخرجه أحمد (٥ : ١٤) وابن ماجة (٤٠) بلفظ : «روى » من حديث سمرة بن جندب .

أحد جانبي الطريق ونحو ذلك فهل يستحب قصد متابعته في ذلك ؟ كان ابن عمر يحب أن يفعل مثل ذلك . وأما الخلفاء الراشدون وجمهور الصحابة فلم يستحبوا ذلك لأن هذا ليس بمتابعةٍ له ، إذ المتابعة لابد فيها من القصد ، فإذا لم يقصد هو ذلك الفعل بل حصل له بحكم الاتفاق[٣٦] كان في قصده غير متابع له وابن عمر رحمه الله يقول : وإن لم يقصده[٣٧] لكن نفس فعله حسن علىٰ أي وجه كان فأحب أن أفعل مثله ، إما لأن ذلك زيادة في محبته واما لتركه مشابهته.

ومن هذا الباب إخراج التمر في صدقة الفطر لمن ليس ذلك قوته ، وأحمد قد وافق ابن عمر علىٰ مثل ذلك . ويُرخص في مثل ما فعله ابن عمر وكذلك

---

(٣٦) وقد نبَّه ﷺ لمثل هذا لئلا يُقصد فقال في نسكه في حجة الوداع : « وقفت هنا وعرفة كلها موقف . ومنىً كلها منحر » وإذا لم يرد أن يتبع في مثل هذه الأمور الاتفاقية في النسك فغير النسك أولىٰ ، ومخالفة ابن عمر لجمهور الصحابة في هذا يُعذر فيها بحسن نيته ولا يتبع .

(٣٧) أي لم يقصد النبي ﷺ هذا الفعل .

رخص أحمد في التمسح بمقعده من المنبر اتباعاً لابن عمر. وعن أحمد في التمسح بالمنبر روايتان: أشهرهما أنه مكروه كقول الجمهور، وأما مالك وغيره من العلماء فيكرهون هذه الأمور وإن فعلها ابن عمر فإن أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم لم يفعلها، فقد ثبت بالإسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان في السفر فرآهم ينتابون مكاناً فيه فقال: ما هذا؟ قالوا: مكانٌ صلىٰ فيه رسول الله ﷺ، فقال: أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا، من أدركته فيه الصلاة فليصلِّ فيه وإلا فليمضِ.[٣٨] وهكذا للناس قولان فيما فعله من المباحات علىٰ غير وجه القصد هل متابعته فيه مباحةٌ فقط أو مستحبة، علىٰ قولين في مذهب أحمد وغيره كما قد بسط ذلك في موضعه، ولم يكن ابن عمر ولا غيره من الصحابة يقصدون الأماكن

---

(٣٨) أخرجه ابن أبي شيبة (٢ : ٣٧٦) بألفاظ مقاربة، وإسناده صحيح.

التي كان ينزل فيها ويبيت فيها مثل بيوت أزواجه ومثل مواضع نزوله في مغازيه، وإنما كان الكلام في مشابهته في صورة الفعل فقط وإن كان هو لم يقصد التعبد به فأما الأمكنة نفسها فالصحابة متفقون علىٰ أنه لا يُعظم منها إلا ما عظمه الشارع.

فصل

وأما قصد الصلاة والدعاء والعبادة في مكانٍ لم يقصد الأنبياء فيه الصلاة والعبادة بل رُوي أنهم مروا به ونزلوا فيه أو سكنوه فهذا كما تقدم لم يكن ابن عمر ولا غيره يفعله فإنه ليس فيه متابعتهم لا في عملٍ عملوه ولا قصدٍ قصدوه، ومعلوم أن الأمكنة التي كان النبي ﷺ يحل فيها إما في سفره وإما في مقامه مثل طرقه في حجه وغزواته ومنازله في أسفاره، ومثل بيوته التي كان يسكنها والبيوت التي كان يأتي إليها

أحياناً[٣٩]. فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك».

فهذه نصوصه الصريحة تُوجب تحريم اتخاذ قبورهم مساجد مع أنهم مدفونون فيها، وهم أحياء في قبورهم، ويُستحب إتيان قبورهم للسلام عليهم، ومع هذا يحرم إتيانها للصلاة عندها واتخاذها مساجد.

ومعلوم أن هذا إنما نُهيَ عنه لأنه ذريعةٌ إلىٰ الشرك، وأراد أن تكون المساجد خالصةً لله تعالىٰ تُبنىٰ لأجل عبادته فقط، لا يشركه في ذلك مخلوق، فإذا بُنِيَ المسجد لأجل ميت كان حراماً، فكذلك إذا كان لأثر

---

(٣٩) سقط من هنا ورقة من الأصل. والظاهر من سياق الكلام أنه تكلم فيه على ما اتخذه الناس من القبور والأماكن محال عبادة. وإن ذلك غير مشروع. واحتج علىٰ ذلك بأحاديث. منها حديث « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد » الخ. ويُعلم تفصيل هذا من كتاب « التوسل والوسيلة » له وهو مطبوع مشهور.

آخر، فإن الشرك في الموضعين حاصل، ولهذا كانت النصارىٰ يبنون الكنائس على قبر النبي والرجل الصالح وعلىٰ أثره وباسمه. وهذا الذي خاف عمر رضي الله عنه أن يقع فيه المسلمون هو الذي قصد النبي ﷺ منع أمته منه، قال الله تعالى: ﴿وأَنَّ المَسَاجِدَ لله فَلا تَدْعوا مَعَ الله أحَدَاً﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وَأَقِيموا وُجُوهَكَمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وادْعُوه مُخلصِينَ لهُ الدِّين﴾ [الأعراف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ للمُشْرِكِين أَنْ يَعْمُرَوا مَساجِدَ الله شَاهِدِينَ علىٰ أنفُسِهم بالكُفْر أولئكَ حَبِطَتْ أعمالهُم وفي النار هُمْ خالدون* إنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ الله فَعَسىٰ أُولئِكَ أَنْ يَكُونوا مِنَ المُهْتَدينَ﴾ [التوبة: ١٧ ـ ١٨].

ولو كان هذا مستحباً لكان يستحب للصحابة والتابعين أن يُصَلُّوا في جميع حجر أزواجه وفي كل مكان نزل فيه في غزواته أو أسفاره. ولكان يستحب أن

يبنوا هناك مساجد، ولم يفعل السلف شيئاً من ذلك.

ولم يشرع الله تعالى للمسلمين مكاناً يُقصد للصلاة إلّا المسجد. ولا مكان يُقصد للعبادة إلا المشاعر. فمشاعر الحج كعرفة ومزدلفة ومنىٰ تقصد بالذكر والدعاء والتكبير لا الصلاة، بخلاف المساجد، فإنها هي التي تُقصد للصلاة، وما ثَمَّ مكان يُقصد بعينه إلا المساجد والمشاعر. وفيها الصلاة والنسك، قال تعالى: ﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَماتي لله رَبِّ العَالمين* لا شَريكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] وما سوىٰ ذلك من البقاع فإنه لا يُستحب قصدُ بقعةٍ بعينها للصلاة ولا الدعاء ولا الذكر إذ لم يأت في شرع الله ورسوله قصدُها لذلك وإن كان مسكناً لنبيٍ أو منزلاً أو ممراً.

فإن الدين أصله متابعة النبي ﷺ وموافقته بفعل ما أُمرنا به وشرعه لنا وسَنَّهُ لنا، ونقتدي به في أفعاله التي شرع لنا الاقتداء به فيها بخلاف ما كان من خصائصه.

فأما الفعل الذي لم يشرعه هو لنا ولا أمرنا به ولا فعله فعلاً سنَّ لنا أن نتأسىٰ به فيه، فهذا ليس من العبادات والقرب، فاتخاذ هذا قربةً مخالفةٌ له ﷺ، وما فعله من المباحات علىٰ غير وجه التعبد يجوز لنا أن نفعله مباحاً كما فعله مباحاً، ولكن هل يشرع لنا أن نجعله عبادةً وقربةً؟ فيه قولان كما تقدم، وأكثر السلف والعلماء علىٰ أنا لا نجعله عبادةً وقربةً بل نتبعه فيه فإن فعله مباحاً فعلناه مباحاً، وإن فعله قربةً فعلناه قربةً. ومَنْ جعله عبادةً رأىٰ أن ذلك من تمام التأسي به والتشبه به ورأىٰ أن في ذلك بركة لكونه مختصاً به نوع اختصاص(٤٠).

---

(٤٠) أي هذا مَدركُ اجتهادِ مخالفي جمهور السلف وأئمة الامصار في المسألة ومدرك الجمهور أقوىٰ فإن التعبد بما لم يجعله الشارع عبادةً شرعٌ لم يأذن به الله وغلوٌ في الدين وكلاهما من عظائم الموبقات المذمومة في القرآن، وقصد التبرك لايبيح مخالفته في أصل التشريع وكون دينه وسطاً لا غلو فيه.

وأهل العبادات البدعية يزين لهم الشيطان تلك العبادات ويُبَغِّضُ إليهم السبل الشرعية، حتىٰ يبغضهم في العلم والقرآن والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره. وقد يُبغض إليهم جنس الكتاب فلا يحبون كتاباً ولا من معه كتاب ولو كان مصحفاً أو حديثا، كما حكىٰ النصر أباذي أنهم كانوا يقولون: يدع علم الخرق، ويأخذ علم الورق، قال: ولستُ أستر ألواحي منهم، فلما كبرت احتاجوا إلىٰ علمي. وكذلك حكىٰ السري السقطي أن واحداً منهم دخل عليه فلما رأىٰ عنده محبرةً وقلماً خرج ولم يقعد عنده. ولهذا قال سهل بن عبدالله التستري: يا معشر الصوفية، لا تفارقوا السواد علىٰ البياض، فما فارقَ أحدٌ السواد علىٰ البياض إلا تزندق. وقال الجنيد: علمنا هذا مبنيٌ علىٰ الكتاب والسنَّة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدىٰ به في هذا الشأن. وكثير مِن هؤلاء يُنَفِّرُ من يذكر الشرع أو القرآن أو يكون معه كتاب أو يكتب، وذلك أنهم استشعروا أن هذا

الجنس فيه ما يخالف طريقهم فصارت شياطينهم تهربهم من هذا، كما يُهَرِّبُ اليهودي والنصراني ابنه أن يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقاده في دينه، وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلامه ولا يروه، وقال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١]. وهم مِنْ أرغبِ الناس في السماع البدعي سماع المعازف، ومِنْ أزهدهم في السماع الشرعي سماع آيات الله تعالى.

وكان مما زَيَّنَ لهم طريقهم أن وجدوا كثيراً من المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة الله تعالى وسلوك سبيله إما اشتغالاً بالدنيا، وإما بالمعاصي وإما جهلاً وتكذيباً بما يحصل لأهل التأله والعبادة، فصار وجود هؤلاء مما ينفرهم، وصار بين الفريقين نوعُ

تباغض يشبه من بعض الوجوه ما بين أهل الملتين: هؤلاء يقولون ليس هؤلاء علىٰ شيء، وهؤلاء يقولون ليس هؤلاء علىٰ شيء، وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مما في الكتب .

فمنهم من يظن أنه يُلَقَّنُ القرآنَ بلا تلقين. ويحكون أن شخصاً حصل له ذلك، وهذا كذب. نعم، قد يكون سمع آيات الله فلما صفىٰ نفسه تذكرها فتلاها. فإن الرياضةَ تصقل النفس فيذكر أشياء كان قد نسيها، ويقول بعضهم أو يحكي أن بعضهم قال: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وهذا يقع، لكن منهم من يظن ما يُلقىٰ إليه من خطابٍ أو خاطر هو من الله تعالىٰ بلا واسطة، وقد يكون من الشيطان. وليس عندهم فرقان يُفَرِّقُ بين الرحماني والشيطاني فإن الفرق لا يخطىء هو القرآن والسنَّة فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ .

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ* وَإِنَّهُم لَيَصُدُّونَهُم عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدونُ* حتىٰ إذا جآءنا قَالَ يا لَيْتَ بَيْني وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشرِقَينِ فَبِئْسَ القَرين﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٨].

وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله قال تعالى: ﴿وهٰذا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمين﴾ [القلم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلا يَشْقىٰ* وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمىٰ* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً* قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذٰلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هٰذا القرآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُون الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً* وأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُم عَذَاباً أليماً﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠] وقال تعالى:

﴿وكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإيمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نشَآءُ مِنْ عِبَادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِراط مُسْتَقيم * صِرَاطِ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلىٰ الله تَصِيرُ الأُمور﴾ [الشورى: ٥١ - ٥٢] وقال تعالى: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلىٰ النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [ابراهيم: ١] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِين آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوه وَنَصَرُوه واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَه أُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُون﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ثم إنّ هؤلاء لما ظنوا أن هذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من أتباع الرسول. يقول أحدهم: فلان عطيته علىٰ يد محمد وأنا عطيتي من الله بلا واسطة. ويقول أيضاً: فلان يأخذ عن الكتاب وهذا الشيخ يأخذ عن الله ومثل هذا.

وقول القائل: يأخذ عن الله وأعطاني الله لفظ مجمل، فإن أراد به الإعطاء والأخذ العام وهو الكوني

الخلقي أي بمشيئة الله وقدرته حصل لي هذا، فهو حق، ولكن جميع الناس يشاركونه في هذا، وذلك الذي أخذ عن الكتاب هو أيضاً عن الله أخذ بهذا الإعتبار. والكفار من المشركين وأهل الكتاب أيضاً هم كذلك، وإن أراد أن هذا الذي حصل لي هو مما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه. وهذا الخطاب الذي يُلقىٰ إليَّ هو كلام الله تعالى: فهنا طريقان:

أحدهما: أن يُقال له: من أين لك أن هذا إنما هو من الله لا من الشيطان وإلقائه ووسوسته؟ فإن الشياطين يُوحون إلىٰ أوليائهم وينزلون عليهم كما أخبر الله تعالىٰ بذلك في القرآن، وهذا موجودٌ كثيراً في عباد المشركين وأهل الكتاب وفي الكهان والسحرة ونحوهم، وفي أهل البدع بحسب بدعتهم. فإن هذه الأحوال قد تكون شيطانية وقد تكون رحمانية، فلابد من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والفرقان إنما هو الفرقان الذي بعث الله به محمداً ﷺ فهو ﴿الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ علىٰ عَبْدِهِ لِيكُونَ لِلعَالَمِين

نذيراً﴾ [الفرقان: ١] وهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل وبين الهدىٰ والضلال وبين الرشاد والغيِّ، وبين طريق الجنة وطريق النار، وبين سبيل أولياء الرحمن، وسبيل أولياء الشيطان. كما قد بسط الكلام علىٰ هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أنه يُقال: إذا كان جنس هذه الأحوال مشتركاً بين أهل الحق وأهل الباطل فلابد من دليل يبين أن ما حصل لكم هو الحق.

الطريق الثاني: أن يُقال: بل هذا من الشيطان لأنه مخالفٌ لما بعث الله به محمداً ﷺ وذلك أنه يُنظر فيما حصل له وإلىٰ سببه وإلىٰ غايته، فإن كان السبب عبادةً غير شرعية مثل أن يُقال له اسجد لهذا الصنم حتىٰ يحصل لك المراد، أو استشفع بصاحب هذه الصورة حتىٰ يحصل لك المطلوب، أو ادع هذا المخلوق واستغث به مثل أن يدعوا الكواكب كما يذكرونه في كتب دعوة الكواكب، أو أن يدعو مخلوقاً

كما يدعو الخالق سواء كان المخلوق ملكاً أو نبياً أو شيخاً ، فإذا دعاه كما يُدعىٰ الخالق سبحانه إما دعاء عبادة وإما دعاء مسألةٍ صار مشركاً به، فحينئذ ما حصل أنه بهذا السبب حصل بالشرك كما كان يحصل للمشركين، وكان الشياطين تتراءىٰ لهم أحياناً وقد يُخاطبونهم من الصنم ويُخبرونهم ببعض الأمور الغائبة أو يقضون لهم بعض الحوائج، فكانوا يبذلون لهم هذا النفع القليل بما اشتروه منهم من توحيدهم وإيمانهم الذي هلكوا بزواله كالسحر قال الله تعالى: ﴿وما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حتىٰ يقولا إنَّما نحن فتنةٌ فلا تكفُرْ فيتعلَّمون منهما ما يفرِّقونَ بِهِ بينَ المرءِ وزَوْجِهِ وما هم بضارِّين به من أحدٍ إلا بإذن الله ويتعلَّمون ما يَضُرُّهم ولا يَنْفَعُهُم وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشتراه ما له في الآخرةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠٢].

وكذلك قد يكون سببه سماع المعازف وهذا كما يُذكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «اتقوا

الخمر فإنها أم الخبائث. وإن رجلاً سأل إمرأةً فقالت: لا أفعل حتىٰ تسجد لهذا الوثن، فقال: لا أشرك بالله، فقالت: أو تقتل هـذا الصبي؟ فقـال: لا أقتـل النفس التي حَرَّمَ الله، فقالت: أو تشـرب هذا القـدح؟ فقال: هذا أهون، فلما شرب الخمر قتل الصبي وسجد للوثن وزنا بالمرأة»(٤١)

والمعازف هي خمر النفوس، تفعل بالنفوس أعظم مما تفعل حميا الكؤوس، فإذا سكروا بالأصـوات حَلَّ فيهم الشــرك ومـالــوا إلىٰ الفـواحش وإلىٰ الــظلم، فيشركون ويقتلون النفس التي حرم الله ويزنون.

وهــذه الثـلاثــة مـوجــودة كثيـراً في أهـل سمـاع المعازف: سماع المكاء والتصدية، أما الشرك فغالبٌ عليهم بـأن يحبوا شيخهم أو غيـره مثل مـا يحبون الله، ويتواجدون على حبه.

---

(٤١) أخرجه البيهقي في سننه (٨: ٢٨٧ ـ ٢٨٨) بألفاظ مغايـرة إذ أن فيه أن المرأة هي التي أرادت غوايته ثم خيرته بهذا الأشياء، وليس فيه ذكر الوثن. وصححه ابن كثير في تفسيره (٣: ١٨٠).

وأما الفواحش فالغناء رقيةُ الزنا وهو من أعظم الأسباب لوقوع الفواحش ويكون الرجل والصبي والمرأة في غاية العفة والحرية حتىٰ يحضره فتنحل نفسه وتسهل عليه الفاحشة ويميل لها فاعلاً أو مفعولاً به أو كلاهما كما يحصل بين شاربي الخمر وأكثر .

وأما القتل : فإن قتل بعضهم بعضاً في السماع كثير يقولون : قتله بحاله ويَعُدُّون ذلك من قوته، وذلك أن معهم شياطين تحضرهم فأيهم كانت شياطينه أقوىٰ قتل الآخر ، كالذين يشربون الخمر ومعهم أعوان لهم فإذا شربوا عربدوا فأيهم كانت أعوانه أقوىٰ قتل الآخر ، وقد جرىٰ مثل هذا لكثيرٍ منهم ، ومنهم مَنْ يقتل إما شخصاً وإما فرساً أو غير ذلك بحاله ، ثم يقوم صاحب الثأر ويستغيث بشيخه فيقتل ذلك الشخصَ وجماعةً معه إما عشرة وإما أقل أو أكثر كما جرىٰ مثل هذا لغير واحد ، وكان الجهال يحسبون هذا من باب الكرامات .

فلمـا تبين لهم أن هذه أحـوال شيـطانية وأن هؤلاء معهم شيـاطين تُعينهم علىٰ الإثم والعدوان عـرف ذلك من بَصَّـرَهُ الله تعـالىٰ وانكشف التلبيس والغش الـذي كان لهؤلاء .

وكنتُ في أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهـل الـزهـد والعبـادة والإرادة فكـانـوا من خيـار أهـل هـذه الـطبقة ، فبتنـا بمكـانٍ وأرادوا أن يُقيمـوا سمـاعـاً وأن أحضر معهم فامتنعتُ من ذلك فجعلوا لي مكانـاً منفرداً قعـدتُ فيه فلمـا سمعوا وحصـل الوجـد والحال صـار الشيخ الكبير يهتف بي في حال وجده ويقول : يا فلان قـد جاءك نصيبٌ عـظيم تعال خـذ نصيبك . فقلت في نفسي ثم أظهـرته لهم لمـا اجتمعنا : أنتم في حـل من هـذا النصيب فكلُّ نصيبٍ لا يـأتي علىٰ طريق محمـد ابن عبدالله فإني لا آكل منه شيئاً . وتبين لبعض مَنْ كان فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين وكان فيهم من هو سكران بالخمر .

والـذي قلته معنـاه أن هـذا النصيب وهـذه العـطيـة والموهبة والحـال سببها غيـر شرعي ليس هـو طاعـة لله ورسوله ولا شَرَّعها الرسول فهو مثل مَنْ يقـول : تعـال اشرب معنا الخمر ونحن نعطيك هذا المال ، أو عَظِّم هذا الصنم ونحن نوليك هذه الولاية ونحو ذلك .

وقد يكون سببه نذرٌ لغير الله سبحانه وتعالىٰ مثـل أن ينذر لصنمٍ أو كنيسةٍ أو قبرٍ أو نجمٍ أو شيخ ونحـو ذلك من النذور التي فيها شرك ، فإذا أشرك بالنذر فقد يعطيه الشيطان بعض حوائجـه كما تقـدم في السحر ، وهـذا بخـلاف النذر لله تعـالى فإنـه ثبت في الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نهىٰ عن النـذر وقال : « إنـه لا يـأتي بخير وإنمـا يُستخرج بـه من البخيل »[٤٢] وفي الصحيحين عن أبي هـريـرة عن النبي ﷺ نحوه[٤٣] ،

---

(٤٢) أخرجه البخاري (١١ : ٥٧٦) ومسلم (٣ : ١٢٦١) بألفاظ مقاربة .

(٤٣) أخرجه البخاري (١١ : ٥٧٦) ومسلم (٣ : ١٢٦١).

وفي رواية: «فإن النذر يلقي ابن آدم إلى القدر»[٤٤] فهذا المنهي عنه هو النذْر الذي يجب الوفاء به منهيٌّ عن عقده، ولكن إذا كان قد عقده فعليه الوفاء به كما في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[٤٥].

وإنما نهىٰ عنه ﷺ لأنه لا فائدة فيه إلا التزام ما التزمه وقد لا يرضىٰ به فيبقىٰ إثماً. وإذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان خيراً له. والناس يقصدون بالنذر تحصيل مطالبهم، فَبَيَّنَ النبي ﷺ أن النذر لا يأتي بخيرٍ، فليس النذر سبباً في حصول مطلوبهم، وذلك أن الناذر إذا قال: لله عَلَيَّ إن حفظني الله القرآن أن أصوم مثلاً ثلاثة أيام، أو إن عافاني الله من هذا

---

(٤٤) هو من رواية أبي هريرة المتقدمة، ولفظه: «ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قُدِّر له».

(٤٥) أخرجه البخاري (١١: ٥٨١).

المرض ، أو إن دفع الله هذا العدو ، أو إن قضىٰ عني هذا الدين فعلتُ كذا ، فقد جعل العبادة التي التزمها عوضاً عن ذلك المطلوب والله سبحانه لا يقضي تلك الحاجة بمجرد تلك العبادة المنذورة بل ينعم علىٰ عبده بذلك المطلوب ليبتليه أيشكر أم يكفر ، وشكره يكون بفعل ما أمره به وترك ما نهاه عنه .

وأما تلك العبادة المنذورة فلا تقوم بشكر تلك النعمة ولا بنعم الله ، تلك النعمة ليعبده العبد تلك العبادة المنذورة التي كانت مستحبة فصارت واجبةً ، لأنه سبحانه لم يوجب تلك العبادة ابتداءً بل هو يرضىٰ من العبد بأن يؤدي الفرائض ويجتنب المحارم ، لكن هذا الناذر يكون قد ضَيَّعَ كثيراً من حقوق الله ثم بذل ذلك النذر لأجل تلك النعمة ، وتلك النعمة أجل من أن ينعم الله بها لمجرد ذلك المنذور المحتقر ، وان كان المبذول كثيراً والعبد مطيع لله فهو أكرم علىٰ الله من أن يحوجه إلىٰ ذلك المبذول الكثير فليس النذر سبباً لحصول مطلوبه كالدعاء فإن الدعاء من أعظم

الأسباب ، وكذلك الصدقة وغيرها من العبادات جعلها الله تعالى أسباباً لحصول الخير ودفع الشر إذا فعلها العبد ابتداءً ، وأما ما يفعله علىٰ وجه النذر فإنه لا يجلب منفعة ولا يدفع عنه مضرة ، لكنه كان بخيلاً فلما نذر لزمه ذلك ، فالله تعالىٰ يستخرج بالنذر من البخيل فيعطي علىٰ النذر ما لم يكن يعطيه بدونه ، والله أعلم .

* * *

تمت والحمد الله وحده . وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً ، وذلك نهار الثلاثاء آخر شهر صفر من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل .